المحاضرة الخامسة: المنهج الجينيالوجي

شكل الفكر النتشوي على مر العصور طريقة فريدة في التفلسف على غرار بعض الفلاسفة السابقين عليه كهيراقليدس على سبيل المثال،وقد صرح بذلك نتشه بنفسه قائلا: "أنا لست إنسانا،أناعبوة ديناميت أتفلسف بضربات المطرقة". ثم أضاف:"إني أكتب الفلسفة للمستقبل ،وستخصص كراسي لتدريس الفكر النتشوي...أنا شيء وكتاباتي شيء آخر إني سابق لأواني ..."فهو عندما قال هذا الكلام ليس من باب الترف الفكري أو ماشابه ذلك،وإنما قال هذا،لأنه اكتشف بعض النواقص في تحليل قضايا الفكر الفلسفي السابق خصوصا مع أفلاطون بالتحديد،كما تمرد على أغلب الأنساق الفلسفية الماضية محطما أغلبها بمطرقته،بحيث لم يترك نفسه يبقى نكرة كما كان يردد. ولما كان كل عمل يقتضي من صاحبه طريقة أومنهج،فكذلك نتشه قد اتخذ المنهج الجينيالوجي طريقة له في الكتابة،أو بتعبير آخر النقد الجينيالوجي من خلال مجموعة من المسائل والمفاهيم،مثل مسألة النفس والجسد ومسألة القراءة ومسألة الحقيقة والميتافيزيقا والأخلاق.

أولا: مفهوم المنهج الجينيالوجي

لغة:المنهج الجينيالوجي مشتق من الجنيالوجياGénéalogieوهو مصطلح اغريقي يتكون منgénéaالتي تعني الأصل وlogieالتي تعني علم أو دراسة أو مبحثوبالتالي فالجينيالوجيا تعني علم الأصل أو نترجمها في بعض الأحيان بعلم الأجيال أو علم الأنساب. وعليه يمكن القول أن الجينيالوجيا هي بالأساس دراسة النشأة و التكوين للوقوف عند الأصل.و العرب تحديداً كانوا مهتمين بهذا العلم و كانوا من روّاده و من أكثر الشعوب إنتاجاً للمؤلفات و الكتب في هذا المجال. و يعتبر (هشام بن السائب الكلبي) هو رائد هذا العلم لدى العرب (و لذلك سمّى بـ"الإمام النسّابة")، و كان من أهم ما كتبه في علم الأنساب "الوجيز" و "الملوك" و "الفريد" .

إصطلاحا:المنهج الجينيالوجيبمثابة استراتيجية نقدية ارتبطت بالفلسفة النتشوية.وهو المنهج الذي تبناه "نيتشه" في مساءلة المفاهيم وقلبها، بتعبير آخر إن الجنيالوجيا Généalogie هي القلب الجذري للقيم ، فنتشه عندما كان يعالج مفهوما معينا كان يرجعه إلى جذوره، وهنا تكون الجنيالوجيا

مرادفة شيئا ما للإيتيمولوجياEtymologie أي البحث الإشتقاقي للمفهوم، ولكن الجنيالوجيا لاتقف عند هذا الحد أي أنها ليست فقط عودة بالمفاهيم إلى أصولها التي صدرت عنها، وإنما هي عودة من أجل القلب.تبدو فلسفة نيتشه كمحاولة لاستبدال مشكلة الوجود بمشكلة القيمة، وهنا تكمن أهمية المنهج الجينيالوجي في فكر نيتشه ، فهو يفكك خطاب الميتافيزيقا و يقوم بهدم إجراءات تشكّل هذا الخطاب و تقويضها،كما هو كشف عن لحظة الخلق التي تعقب ضربات مطرقة النقد و التفكيك و لعلّ هذا ما يتجلى في كتابه "جينيالوجيا الأخلاق".

ثانيا: هدف المنهج الجينيالوجي

حاول نتشه من خلال المنهج الجينيالوجي البحث في مسألة القيم و تعريتها من الأقنعة الأخلاقية و العادات و الدين و فضح أصولها. ويعود له الفضل في كشف أن القيم السائدة مجرد أكاذيب و أوهام تبعث على النفاق و الانحطاط و الوهن و المرض. فالمشروع النتشوي يتمثل في تدمير النظريات الأخلاقية و إعادة بنائها جينيالوجيا. و ذلك من خلال الغوص في الأعماق و التقويم القيمي، و لعلّ هذا ما بينه قارئ الفلسفة النتشوية جيل دولوز في كتابه:(نتشه و الفلسفة).

ولقد كان النقد بالنسبة لنتشه بمثابة التفكيك لتنظيم العلوم و الفلسفة من جديد ، وذلك من خلال نقده الموجه للنفسانيين الانكليز في كتابه "جينيالوجيا الأخلاق" الذين قاموا بإنشاء تاريخ لأصول الأخلاق في محاولة للبحث عن أصل القيم و أصل الخير و الشر و الطيب و الخبيث ،و اعتبر نتشه في هذا السياق أن الأبحاث الأخلاقية للنفسانيين الانكليز سخيفة و مبنية على النسيان و العادة و الخطأ.من هذا المنظور يمكن القول أن التفكير الفلسفي الذي يفتتحه السؤال الجينيالوجي يسعى إلى هدم السائد، و إعادة الخلق و التأسيس و إقامة لتاريخ جديد للفلسفة بصفة عامة و للقيم بصفة خاصة . فهو استذكار لتاريخ الفلسفة و ليس استرجاعا لها، و يسعى إلى تأسيس تاريخ جديد للفلسفة. ويتمثل الإطار الإشكالي لجينيالوجيا الأخلاق في قلب السؤال الميتافيزيقي .

ثالثا: الجينيالوجيا في فلسفة نتشه

يذهب الباحث جمال مفرج إلى أن نتشه قد أراد من خلال المنهج الجينيالوجي أن يضع موضع الشك والنقد كل المسائل التي يعالجها،ويحدد المنهج الجينيالوجيبأنه هو البحث عن الأصل،فهو أساسا منهج تاريخي،وهو منهج يقترن من جهة بالفيلولوجيا أو فقه اللغة، لأنه ينظر إلى الظاهرة التي يدرسها كنص يجب التعرف عليه،أي يطرح مشكلة معنى الظاهرة،ويقترن من جهة أخرى بالجينيالوجيا التي تطرح قيمة المعنى من خلال البحث عن أصل الظاهرة، لأنه بالنسبة لنتشه لا توجد وقائع، وإنما توجد سلسلة لا متناهية من التأويلات المختلفة التي تتعاقب عليها،أو هو تاريخ تعدد المعاني واختلافها. وعليه فإن نتشه لا يهتم بالبحث في جواهر الأشياء وماهيتها، وإنما يهمه معرفة الكيفية التي تسمى بها،كما أن المعنى الظاهر قد يكون هو المعنى الهش الذي يغطي خلفه معنى خفيا،وهذا المعنى هو المطلوب اكتشافه ومعرفة لأية غاية تجري عملية تنكيره،وكان نتشه يحلم بفيلولوجيا جديدة،لا يهمها ما تقوله الكلمات،وإنما تهتم بالذي يملك سلطة الكلام وبالقوى التي تتصارع في اللغة، ومن خلالها القوى التي تمتلك سلطة التأويل، فاللغة عند نتشه هي مسرح لاستراتيجيات الهيمنة ومستودع بالتعريف بالكذب. وعن مراحل المنهج الجينيالوجي عند نتشهحسب الباحث جمال مفرج فهي:

المرحلة الأولى:وفيها يتم تصنيف القيم والعادات والأحكام الأخلاقية التي صدرت في الماضي عند مختلف الشعوب،ليس وفق نظرة خطية تاريخية جوهرانية،تعزل الذوات والماهيات عن الوقائع، بل أن التاريخ الجينيالوجي يهدف إلى كشف كل الحيل وأنماط التنكير التي تشوه الأحداث.

المرحلة الثانية: يهتم الجينيالوجي برد الأشياء والقيم إلى القوى المتحكمة بها،أي ربط المفهوم بالإرادة التي لا يمكن تصوره بدونها،لأن الميل إلى المعرفة هو نزوع إلى السيطرة،فإذا نظرنا إلى شيء ما،فإنه يجب البحث عن القوى التي تستحوذ عليه، والقوى التي تعبر عن نفسها فيه،وتتخفى فيه في الوقت نفسه،فمع نتشه ومن بعده فوكولم تعد المعرفة بريئة أو مستقلة عن أغراض وأهداف السلطة،بل بالعكس أصبحت جزءا من السياسة العامة للسلطة.

المرحلة الثالثة: لا تهتم الجينيالوجيا بمعرفة القوى التي تتحكم بالظاهرة،وإنما تعمل على تقويم هذه الأشياء والقيم وتقدير قيمة الأصل،لأن مهمة الجينيالوجيا هي مهمة نقدية بالأساس،وذلك ما عبر

عنه نتشه في كتابه إنساني،إنساني جدا بأن التفاضل أو التراتب هو قضيتنه الأساسية. وعليه فإن الجينيالوجيا مهمتها بالدرجة الأولى الإرادة التي تقبع خلف الكلمات وخلف اللغة،أي حديث القوى الفاعلة التي تتنكر خلف المعنى الظاهر للكلمات،ولذلك يركز نتشه كثيرا على معرفة الكيفية التي تسمى بها الأشياء،أي إرادة التسمية والتوصيف، وما يترتب عن ذلك هو أن الأصلأو الأصول بما هي ماهيات وجواهروحقائق تقدم على أنها متعالية وغير تاريخية،لم تعد تحظ في الجينيالوجيا بأهمية كبيرة، لأن التاريخ الجينيالوجي يعلمنا الاستخفاف بالحفاوة التي يحظى بها الأصل.

لقد كانت فلسفةنتشه فلسفة جنيالوجية تفضح طابع البداهة الذي يغلف معطيات الوقائع ، وتعود بنا إلى أصل تشكل وتبلور المفهوم، بغية قلبه وعكسه واجتثاث أشكال الميتافيزيقا منه، حتى نرى له هيأة أخرى، مغايرة لما درجت عليه الألسن، ومن ثم فالنقد الجنيالوجي هو نقد تفكيكيوسيميولوجي في الآن معا.

ولقد طبق نتشه مثلا هذا النوع من النقد على مفهوم " الحقيقة" معتبرا إياها وهما في قوله : "إن الحقائق أوهام نسينا أنها كذلك". هكذا واستنادا إلى هذا الطرح و اعتمادا على هذا الأساس قام نتشه مرة أخرى بفضح الحضارة الغربية ذاتها مطبقا عليها منهجه الجنيالوجي، حيث اعتبرها حضارة حاقدة، وأن الفلسفة تسهم بذلك في هذا المضمار، إذ أنها ليست سوى محاولة بعث للسقراطيةsocratisme ، فسقراط (راعي الجرذان) كما كان يحلو لنتشه أن يناديه، ليس في الواقع إلا إنسانا مريضا حاقدا على الحياة، قام بعملية تدمير ممنهجة للفلسفة، ومن ثم يقوم نتشه بعملية عكس هذا المعطى، معتبرا أن الفلسفة الحقيقية هي الفلسفة ماقبلاسقراطية، ومن ثم يصرخ نتشه بضرورة إرجاع الفلسفة إلى سابق عهدها، أي إلى ما قبل سقراط حيث تكون الفلسفة تحتفي بالحياة وتمجدها عوض الحقد عليها و النيل منها.

ويبدي الباحث جمال مفرج روحا نقدية كبيرة في دراسته للمنهج الجينيالوجي عند نتشهحيث يبرز ما يسميه بالنتائج الخطيرة التي ترتبت عن النقد الجينيالوجي في الدين والأخلاق والسياسة والعلم والفن، فالأخلاق يردها نتشه إلى الغرائز وعلى رأسها غريزة السيطرة وإرادة القوة،ويرفض أن يكون

مصدرها الدين أوالعقل،وما يترتب عن هذا هو نسبية الأخلاق،والدين يرده إلى التاريخ،ويرى أن اللاهوت أو التيولوجيا هو عبارة عن أنثروبولوجيا مقنعة،وعليه فالإله صنيعة بشرية، وأنه من صنع الضعفاء ليكبلوا الأقوياء،كما أن الفلسفة أرجعها إلى الدين،وأن الميتافيزيقا وما تتضمنه من أفكار كالجوهر والذات والعالم الحقيقي هي أخطاء ناتجة عن كراهية الفلاسفة للصيرورة والتغير، كما أن المعرفة والعلم والفن حسب نتشه قضايا لا تقوم على الحقيقة، وإنما على الحاجة والمصلحة،وأن الإنسانية تفضل الوهم على الحقيقة حتى تستطيع احتمال الوجود.وكل هذا بالنسبة للباحث جمال مفرج نتائج خطيرة تتعارض مع أصول الثقافة العربية الإسلامية.